

معاني الكلمات :

حافين : محدين محيطين .

غافر الذنب : سائر الذنب .

ذى الطول : ذى الغنى والإنعام والتفضل .

يغررنك : يخدعك .

تقلبهم : تنقلبهم .

ليدحضوا : ليدخلوا .

حققت : وجبت .

وقهم : واحفظهم .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن الكون كله يتجه إلى ربه بالحمد في خشوع واستسلام .

٢ - أن نتعرف على مصارع الغابرين .

٣ - أن نعلم حقيقة المعركة بين الإيثار والكفر .

المحتوى التربوي :

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار ، وأنه نزل كلا في المحل الذى يليق به ويصلح له ، وهو العادل في ذلك الذى لا يجوز أخبر عن ملائكته أنهم محققون من حول عرشه المجيد ، يسبحون بحمد ربهم ، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضى الأمر ، وحكم بالعدل بين الخلائق ؛ ونطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه - لله رب العالمين ، بالحمد في حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .

سورة غافر .

هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل ، قضية الإيمان والكفر ، قضية الدعوة والتكذيب ، وأخيراً قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق ، وبأس الله الذي يأخذ العالمين المتجبرين ، وعلى العموم ، فإن السورة كلها تبدو وكأنها مطارق تقع على القلب البشري ، وتؤثر فيه بعنف وقد ترق أحيانا .

وهذه السورة بدأت كسبع سور كلها تبدأ بالحرفين : « حا : ميم » منها سورة واحدة يذكر فيها بعد هذين الحرفين ثلاثة حروف آخر : « عين . سين . قاف » ، وقد سبق الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل السور ، وأنها إشارة إلى صياغة هذا القرآن منها ، وهو معجز لهم مع تيسير هذه الأحرف لهم ومعرفتهم بها ، وهى أحرف لغتهم التى يتحدثونها ويكتبونها .

وتأتى الإشارة إلى تنزيل الكتاب وهو القرآن من الله ذى العزة والعلم ، فلا يرام جنبه ، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابيه ، وهو الغافر الذى يغفر ما سلف من الذنب ، ويقبل التوبة فى المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه ، وهو شديد العقاب لمن تمرد وطغى وأثر الحياة الدنيا ، وعنا عن أوامر الله وبغى ، وهو صاحب السعة والغنى والخير الكثير المتفضل على عباده ، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التى لا يطيّقون القيام بشكر واحدة منها ، وله سبحانه الألوهية وحده لا شريك له ولا شبيه ، ولا نظير ، فلا إله غيره ولا رب سواه إليه المرجع والمآب ، فيجازى كل عامل بعمله .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا تتضح صلته تعالى بعباده وصلة عباده به تتضح فى مشاعرهم وتصوراتهم وإدراكهم ، فيعرفون كيف يعاملونه فى يقظة وفى حساسية ، وفى إدراك لما يُغضبه وما يرضيه... وجاء الإسلام واضحاً ناصحاً يصل الناس بإلهم الحق ، ويعرفهم بصفاته ، ويبصرهم بمشيتته ويعلمهم كيف يتقربون إليه ، وكيف يرجون رحمته ، ويخشون عذابه ، على طريق واضح قاصد مستقيم ... وبعد تقرير تلك الصفات العلوية وتقرير الوجدانية ، يقرر أن هذه الحقائق مسلمة من كل ما فى الوجود ، وكل من فى الوجود ، ففطرة الوجود كله مرتبطة بهذه الحقائق ، متصلة بها الاتصال المباشر الذى لا تجادل فيه ولا تماحل ، والوجود كله مقتنع بآيات الله الشاهدة بحقيقته ووجدانيته وما من أحد يجادل فيها إلا الذين كفروا وحدهم » .

ويكون الدرس للنذير الذى يرى أن إنذاره لا ينفع فى هؤلاء الكافرين ، ألا يغتر بما هم فيه منع الدنيا ، فالعبرة للعاقبة فى الدنيا والآخرة ، فمهما تقلبوا وتحركوا وملكوا ، واستمتعوا فهم إلى اندحار وهلاك وبوار ، ولقد سبقتهم أقوام وأحزاب على شاكلتهم ، توحى عاقبتهم بعاقبة كل من يقف فى وجه القوة الطاحنة العارمة التى يتعرض لها من يعرض نفسه لبأس الله ، فهى قصة

قديمة من عهد نوح ، ومعركة ذات مواقع متشابهة في كل زمان ، وهذه الآية تصور هذه القصة ، قصة الرسالة والتكذيب والطغيان على مدى القرون والأجيال كما تصور العاقبة في كل حال ، رسول يجيء فيكذبه طغاة قومه ، ولا يقفون عند مقارعة الحجة بالحجة ، إنما هم يلجؤون إلى منطق الطغيان الغليظ ، فيهمون أن يبطشوا بالرسول ، ويموهون على الجماهير بالباطل ليغلبوا به الحق ، وهنا تتدخل يد القدرة الباطشة ، فتأخذهم أخذًا يعجب ويدهش ، ولقد كان عقابا مدمرًا قاضيا عنيفا شديدا ، ومتى حقت كلمة الله على أحد فقد وقعت وقضى الأمر وبطل كل جدال .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا يصور القرآن الحقيقة الواقعة ، حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، وبين الدعاة إلى الله الواحد والطغاة الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق ... هذه الحقيقة - حقيقة المعركة والقوى البارزة فيها ... بصورها القرآن لتستقر في القلوب ، وليعرفها - على وجه خاص - أولئك الذين يحملون دعوة الحق والإيمان في كل زمان ومكان ، فلا تتعاضدهم قوة الباطل الظاهرة في فترة محدودة من الزمان ، ورقعة محدودة من المكان ، فهذه ليست الحقيقة ، إنما الحقيقة هي التي يصورها لهم كتاب الله ، وتنطق بها كلمة الله ، وهو أصدق القائلين وهو العزيز العليم » .

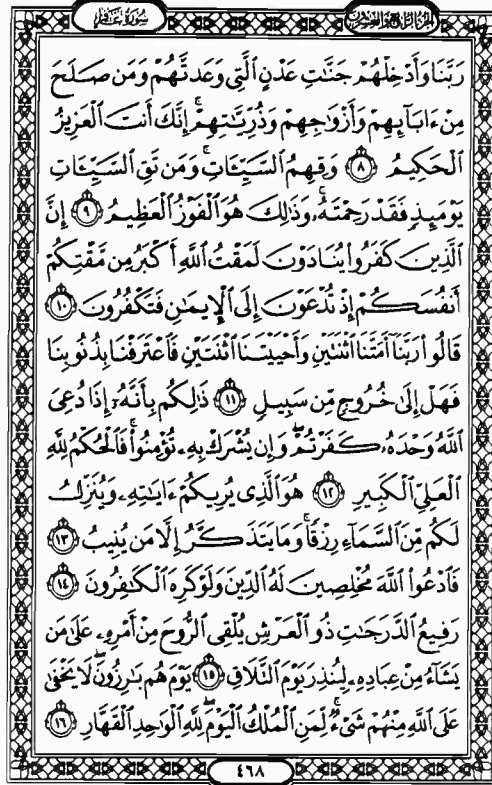
ويتصل بتلك الحقيقة الأولى أن حملة العرش ومن حوله . وهم من بين القوى المؤمنين في هذا الوجود - يذكرون المؤمنين من البشر عند ربهم ، ويستغفرون لهم ، ويستنجزون وعد الله إياهم ، بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين ونحن لا نعرف ما هو العرش ؟ ولا نملك صورة له ، ولا نعرف كيف يحمله حملته ، ولا كيف يكون من حوله ، وكل ما يتصل بالحقيقة التي يقررها سياق السورة أن عبادا مقربين من الله ، يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، وهم يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن ، وهم يبدؤون دعاءهم بأدب يعلمنا كيف يكون أدب الدعاء ، فهم في طلب الرحمة للناس إنما يستمدون من رحمة الله التي وسعت كل شيء ويحيلون إلى علم الله الذي وسع كل شيء ، فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه ، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ، وزحزحهم عن عذاب الجحيم ، وهو العذاب الموجه الأليم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - على المسلم أن يهتم كل عمل بالحمد لله ، فمنه تستمد القوة ، وله الفضل كله .
- ٢ - بيان أن الله عز وجل يمهّل ولا يهمل وأن بطشه أليم شديد ، فلتقر قلوب المؤمنين .
- ٣ - من أدب الدعاء الثناء على الله عز وجل بما هو أهله .

معانى الكلمات :

- تؤمنوا : تدعنوا وتقروا بالشرك .
 لمقت الله : لبغضه الشديد غضبه عليكم .
 ينب : يرجع إلى التفكير في الآيات .
 رفيع الدرجات : رافع السموات .
 يلقي الروح : ينزل الوحي أو القرآن أو جبريل .
 التلاق : الاجتماع في المحشر .
 بارزون : خارجون من القبور .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نتعرف على ما يكون من أمر الكافرين يوم القيامة .
- ٢ - أن نتعلم التدبر في الكون وفي الآيات التي بثها الله في أنحائه .
- ٣ - أن نؤمن أن الكون وما فيه ملك لله العزيز الجبار .

المحتوى التربوي :

يستمر السياق في إبراز دعاء الملائكة، فهم يرتقون في الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين ، ودخول الجنة نعيم وفوز ، يضاف إليه صفة من صلح من الآباء ، والأزواج والذريات ، وهى نعيم آخر مستقل ، ثم هى مظهر من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين ، فعند عقدة الإيمان يلتقى الآباء والأبناء والأزواج ، ولولا هذه العقدة لتقطعت بهم الأسباب ، والتعقيب على هذه الفقرة من الدعاء ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ يشير إلى القوة كما يشير إلى الحكمة ، وبها يكون الحكم في أمر العباد .

وهذه الدعوة بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن - لفئة إلى الركيزة الأولى في الموقف العصيب ، فالسيئات هى التى توبق أصحابها فى الآخرة ، وتوردهم مورد التهلكة ، فإذا وقى الله عباده

المؤمنين منها وقاهم نتائجها وعواقبها ، وكانت هذه هي الرحمة في ذلك الموقف ، وكانت كذلك أولى خطوات السعادة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فمجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم .

وبينما أن حملة العرش ومن حوله يتجهون إلى ربهم بهذا الدعاء لإخوانهم ، نجد الذين كفروا في الموقف الذي تتطلع كل نفس فيه إلى المعين وقد عز المعين ، نجد الذين كفروا هؤلاء - وقد انبتت العلاقات بينهم وبين كل أحد وكل شيء في الوجود ، وإذا هم ينادون من كل مكان بالترذيل والمقت والتأنيب ، وإذا هم في موقف الذلة بعد الاستكبار ، وفي موقف الرجاء ولات حين رجاء .

فهم إذا دخلوا النار ومقتوا أنفسهم فيناديهم خزنة النار لمقت الله عز وجل وبغضه لأنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم ، فالله سبحانه كان يمقت أنفسكم الأمانة بالسوء والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأبون قبوله ، وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار ، إذا وقعتم فيها باتباعكم هواهن .

قال ابن كثير : « يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون ، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما لا يقبل لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم ، وأبغضوها غاية البغض ، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم إلى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً ، بأن نادتهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون ، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة ، وما أوجع هذا التذكير ، وهذا التأنيب في ذلك الموقف المرهوب العصيب ، والآن وقد سقط عنهم غشاء الخداع والضلال يعرفون أن المتجه لله وحده ، فيتجهون وكانوا من قبل يكفرون وينكرون ، فيقولون : ربنا ، أحييتنا أول مرة فنفخت الروح في الموات فإذا هو حياة ، وإذا نحن أحياء ، ثم أحييتنا الأخرى بعد موتنا ، فجئنا إليك وإنك لقادر على إخراجنا عما نحن فيه ، وقد اعترفنا بذنوبنا التي اقترفناها ، فهل إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء من النار لتخلص منها ؟ أم اليأس واقع دون ذلك فلا خروج ولا سبيل إليه ؟

وجاء الجواب من خلال التعليل لبقائهم في النار بأن الذي أنتم فيه ، ولا سبيل لكم إلى خروج منه قط بسبب كفركم بتوحيد الله ، وإيمانكم بالإشراك به ، فالحكم لله حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدي ، العلى شأنه فلا يرد قضاؤه ، الكبير والعظيم سلطانه فلا يجد جزاؤه .

وفي ظل هذا المشهد يستطرد إلى شيء من صفة الله تناسب موقف الاستعلاء ، ويوجه المؤمنين في هذا المقام إلى التوجه بالدعاء موحدتين مخلصين له الدين ، فأيات الله ترى في كل شيء في هذا الوجود ، في المجال الكبيرة من شمس وكواكب ، وليل ونهار ، ومطر وبرق ورعد ، وفي الدقائق الصغيرة من الذرة والخلية والورقة والزهرة ، وفي كل منها آية خارقة ، تبدى عظمتها

حين يحاول الإنسان أن يقلدها - بل أن ينشئها - وهيئات الهيئات التقليد الكامل الدقيق ، لأصغر وأبسط ما أبدعته يد الله في هذا الوجود ، والله تعالى - هو الذى ينزل لكم من السماء رزقا وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ، ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائح وأشكاله ، وهو ماء واحد ، فيا للقدرة العظيمة جعل المطر سبب الرزق ، وفاوت بين هذه الأشياء ، وما يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء إلا من هو رجاء ثواب إلى الله الذاكِر لنعمه العارف لفضله .

وعلى ذكر الإنابة وما تثيره في القلب من تذكر وتدبر يوجه الله المؤمنين ليدعوا الله وحده ، ويخلصوا له الدين ، غير عابئين بكره الكافرين ، ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله ، وأن يدعوه وحده دون سواه ، ولا أمل في أن يرضوا عن هذا مهما لطفهم المؤمنون أو هادنهم ، فليمض المؤمنون في وجهتهم يدعون ربهم وحده ، ويخلصون له عقيدتهم ، ويصفون له قلوبهم ، ويذكر من صفات الله في هذا المقام الذى يوجه المؤمنين فيه إلى عبادة الله وحده ولو كره الكافرون ، يذكر من هذه الصفات أنه سبحانه : هو وحده صاحب الرفعة والمقام العالى ، وهو صاحب العرش المسيطر المستعلى ، وهو الذى يلقى أمره المحيى للأرواح والقلوب على من يختاره من عباده ، وهذا كناية عن الوحي بالرسالة على المختارين من العباد التى وظيفتهم هى الإنذار للناس من يوم التلاق ، وفي هذا اليوم يتلاقى البشر جميعا ، ويتلاقى الناس والملائكة والجن ، وجميع الخلائق التى تشهد ذلك اليوم المشهود ، فهو يوم التلاقى بكل معانى التلاقى .

ثم هو اليوم الذى يبرزون فيه بلا ساتر ولا واق ، ولا تزييف ولا خداع ، والله لا يخفى عليه منهم شئ في كل وقت وفي كل حال ، ولكنهم في غير هذا اليوم قد يحسبون أنهم مستورون ، وأن أعمالهم وحركاتهم خافية أما اليوم فيعلمون أنهم مفضوحون ، ويومئذ يتضاءل المتكبرون ، ويتزوى المتجبرون ، ويقف الوجود كله خاشعا والعباد كلهم خضعا ، ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسلطان ، وهو سبحانه متفرد في كل آن ، فأما في هذا اليوم فيتكشف هذا للعيان بعد انكشافه للجنان ، وينطلق صوت الجلال يسأل : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ وما في الوجود كله يومئذ من سائل غيره ولا يجيب سبحانه على نفسه : الله الواحد القهار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - المعركة بين الحق والباطل مستمرة والنصر فيها للحق وأتباعه دائماً ، وأهل الحق لا يتركون الميدان .

٢ - من يحبه الله ويرضى عنه يبعده عن ارتكاب الذنوب ويثبت على الطاعة .

٣ - لله وحده الملك في الدنيا والآخرة .

معانى الكلمات :

كسبت : عملت .

وأنذرهم : وخوفهم .

يوم الآزفة : يوم القيامة .

إذ القلوب لدى الحناجر: أى تبلغ الحناجر .

كاظمين: ممتلئين غما وحسرة لا يتكلمون .

هميم : صديق ينفعهم أو قريب .

واق : حافظ يحفظهم .

واستحبوا نساءهم : أبقوا بناتهم للخدمة .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعرف على أهوال يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه .
- ٢ - أن نعلم سعة علم الله تعالى وأنه لا يخفى عليه شئ .
- ٣ - أن نعرف أن الأخذ بالذنوب سنة من سنن الله تعالى التى لا تتبدل ولا تتحول .

المحتوى التربوى :

لما قرر السياق أن الملك لله وحده فى ذلك اليوم ، عدد نتائج ذلك ، وهى أن كل نفس تجزى بما كسبت وعملت فى الدنيا من خير وشر ، وأن الظلم مأمون منه ؛ لأنه ليس بظلام للعبيد ، وأن الحساب لا يبطئ ؛ لأنه لا يشغله حساب عن حساب ، فيحاسب الخلق كلهم فى وقت واحد وهو أسرع الحاسبين .

ويستطرد السياق بوجه الرسول ﷺ إلى إنذار القوم بذلك اليوم ، فى مشهد من مشاهد القيامة يتفرد فيه الله بالحكم والقضاء ، بعد ما عرضه عليهم فى صورة حكاية لم يوجه لهم فيها الخطاب ، والآزفة : القرية والعاجلة وهى القيامة ، واللفظ يصورها كأنها مقترية زاحفة ، والأنفاس من ثم مكروية لاهثة ، وكأنها القلوب المكروية تضغط على الحناجر ، وهم كاظمون

لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم ، والكظم يكرهم ، ويثقل على صدورهم ، وهم لا يجدون حميما يعطف عليهم ولا شفيما ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العصيب المكروب .

وهم بارزون في هذا اليوم لا يخفى على الله منهم شيء ، حتى لفطة العين الخائنة ، وسر الصدر المستور والعين الخائنة تجتهد في إخفاء خيانتها ، ولكنها لا تخفى على الله ، والسر المستور تخفيه الصدور ، ولكنه مكشوف لعلم الله ، والله وحده هو الذي يقضى في هذا اليوم قضاءه الحق ، وألهتهم المدعاة لا شأن لها ولا حكم ولا قضاء ، والله يقضى بالحق عن علم وعن خبرة ، وعن سمع وعن رؤية ، فلا يظلم أحدا ولا ينسى شيئا .

يقول الفخر الرازي : « إنه تعالى ذكر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف :

فأولها : إنه سمي ذلك اليوم يوم الآزفة ، أى يوم القرب من عذابه لمن ابتلى بالذنوب العظيم ؛ لأنه من عاين تلك إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف ، حتى قيل : إن تلك الغنوم والهجوم أعظم الإحاش من عين تلك العقوبة .

والثاني : قوله : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ والمعنى : إنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة والتصق بها ، وصار مانعا من دخول النفس .

والثالث : قوله : ﴿ كَظُمِينَ ﴾ والمعنى : إنه لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف ، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب .

والرابع : قوله : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فين أنه ليس لهم قريب ينفعهم ، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته .

والخامس : قوله : ﴿ يَعْلَمُ خَائِبَتَهُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدا جديدا ... وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى ...

والسادس : قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ وهذا أيضا يوجب عظم الخوف ؛ لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال ، وثبت أنه لا يقضى إلا بالحق في كل ما دق وجل ، كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى .

السابع : إن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعته هذه الأصنام ؛ وقد بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة ، فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ .

الثامن : قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أى يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ، ولا يسمع منهم ثناءهم على الله ، ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم ، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم

الله ، فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت في حق المذنب الذي عظم ذنبه كان بالغاً في التخويف إلى الحد الذي لا تعقل الزيادة عليه .

ثم يقص علينا الله عز وجل قصة من قصص السابقين كيف كانوا أشد قوة وآثاراً ، وكيف كذبوا رسل الله ، وكيف كانت عاقبتهم ، وكيف كان عقابهم شديداً ، هذه القصة قصة فرعون ، وذكر قصة فرعون في هذا السياق له دلالة ؛ إذ الفراعنة كانوا أشد قوة وآثاراً في الأرض كما هو مشهور .

يقول صاحب الظلال : « هذا المعبر بين قصة موسى عليه السلام وموضوع السورة قبلها يذكر المجادلين في آيات الله من مشركي العرب بعبرة التاريخ قبلهم ، ورؤية مصارع الغابرين الذين وقفوا موقفهم ، وكانوا أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض ، ولكنهم - مع هذه القوة والعمارة - كانوا ضعافاً أمام بأس الله ، وكانت ذنوبهم تعزلهم عن مصدر القوة الحقيقية ، وتستعدى عليهم قوى الإيمان ومعها قوة الله العزيز القهار : ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴾ ولا واقٍ إلا الإيمان والعمل الصالح والوقوف في جبهة الإيمان والحق والصلاح .

ويذكر السياق القرآني علة الأخذ بسبب أنهم كانت تأنيهم رسلهم بالدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات ، فكفروا مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا فأهلكهم الله ودمرهم ، فهو صاحب قوة عظيمة وبطش شديد ، وعقابه أليم شديد موجع إذا عاقب .

وبعد هذا تبدأ من موقف عرض الرسالة على فرعون وملئه ، وتنتهي هنالك في الآخرة وهم يتحاجون في النار ، وهي رحلة مديدة ، ولكن السياق يختار لقطات معينة من هذه الرحلة هي التي تؤدي الغرض ، فهذا هو موقف اللقاء الأول ؛ موسى ومعه آيات الله ، ومعه الهيبة المستمدة من الحق الذي بيده ، وفرعون وهامان وقارون ومعهم باطلهم الزائف وقوتهم الظاهرة ومركزهم الذي يخافون عليه من مواجهة الحق ذي السلطان ، عندئذ لجؤوا إلى الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق : ﴿ فَقَالُوا سَجَرٌ كَذَابٌ ﴾ ، ويعرض الموقف التالي : فلما جاءهم بالبرهان القاطع الدال على أن الله أرسله إليهم ، أمروا بقتل أبناء المؤمنين واستحياء نسائهم للخدمة ، وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل ، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى ، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأميين ، وأما الأمر الثاني فللملة الثانية وإهانة هذا الشعب ، وما كيد الكافرين إلا في ضياع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١- كل ما في الوجود يدعو الإنسان إلى التفكير في نفسه وفيما حوله من مخلوقات الله ؛ ليقوى إيمانه .

٢- الحث على السير في الأرض للاعتبار بها حدث للسابقين .

معانى الكلمات :

ذرونى : اتركونى .

وليدع ربه : وليناد ربه .

عذت بربى : احتमित به .

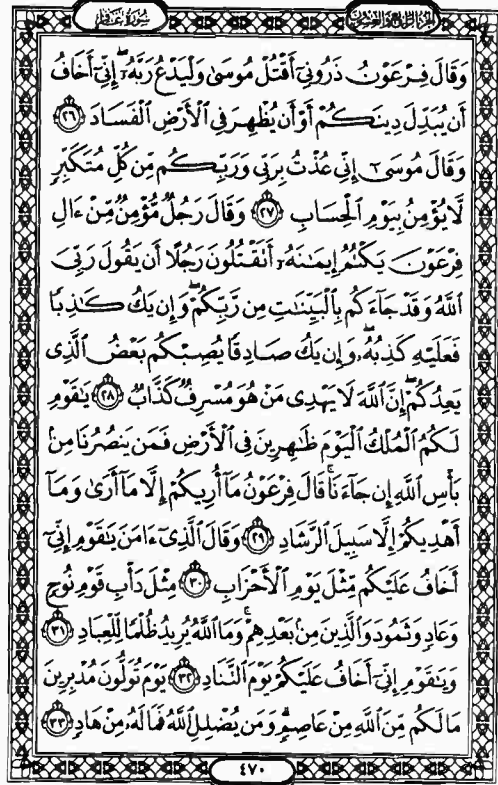
بالبينات : بالمعجزات الظاهرة .

مسرف : مجاوز للحد .

ظاهرين : غاليين عالين .

دأب : عادة .

يوم التناد : يوم القيامة .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم أن التهديد بالقتل شنشنة الجبارين والطغاة في العالم .

٢ - أن نؤمن أن الله سبحانه هو ملاذ المستضعفين من كل خوف .

٣ - أن نتعلم كيف تكون الإيجابية من مؤمن آل فرعون .

المحتوى التربوى :

يذكر السياق القرآنى أن فرعون قال لملئه : دعونى أقتل موسى ، وهذا عزم من فرعون عليه لعائن الله ، فترى على قتل موسى عليه السلام ، وليدع ربه فإنى لا أبالى منه ، وهذا فى غاية الجهل والتجهرم والعناد ، إنى أخاف أن يغير ما أنتم عليه ، وأن يظهر موسى فى الأرض التقاتل والتهايج والفوضى ، بحيث يذهب معه الأمن ، وتعطل المزارع والمكاسب والمعاش ، ويهلك الناس قتلا وضياعا ، كأنه قال : إنى أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه ، أو يفسد عليكم دنياكم ، بما يظهر من الفتن بسببه ، ويخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم ، وهذا كما يقال فى المثل : صار فرعون واعظا يشفق على الناس من موسى عليه السلام وأما موسى عليه السلام فالتجأ إلى الركن الركين والحصن الحصين ولاذ بالجناب الذى يحمى اللائذين ويحير

المستجيرين ، وسلم أمره إلى المستعلى على كل متكبر ، القاهر لكل متجبر ، القادر على حماية العائدين به من المستكبرين .

قال الفخر الرازي : « واعلم أن الكلمات التي ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد :

الفائدة الأولى : إن لفظة ﴿إِنِّي﴾ تدل على التأكيد فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر في دفع الشرور والآفات عن النفس : الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى .

الفائدة الثانية : إنه قال : ﴿إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ ... فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وسوس شياطين الجن ، فكذاك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم : أعوذ بالله ، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات .

الفائدة الثالثة : قوله : ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ والمعنى : كأن العبد يقول : إن الله سبحانه هو الذي رباني ، وإلى درجات الخير راقني ، ومن الآفات وقاني ، وأعطاني نعماً لا أحداً ولا حصراً ، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب ألا يرجع العاقل في دفع كل الآفات والمخالفات إلا إلى حفظ الله تعالى .

الفائدة الرابعة : إن قوله : ﴿رَبِّكُمْ﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه السلام أن يقتدوا به في الاستعاذة بالله ، والمعنى فيه أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوى ذلك التأثير جداً ، وذلك هو السبب الأصل في أداء الصلوات في الجماعات .

الفائدة الخامسة : إنه لم يذكر فرعون في هذا الدعاء ؛ لأنه قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه ، فترك التعيين رعاية لذلك الحق .

الفائدة السادسة : إن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة في الدعاء على فرعون بعينه ؛ بل الأولى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفاً بتلك الصفة ، حتى يدخل فيه كل من كان عدواً سواء كان مظهر تلك العداوة أو كان مخفياً لها .

الفائدة السابعة : إن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران : أحدهما : كون الإنسان متكبراً قاسى القلب ، والثاني : كونه منكراً للبعث والقيامة » .

ثم يذكر السياق : أن رجلاً من آل فرعون وقع الحق في قلبه ولكنه كتم إيمانه انتدب يدفع عن موسى ، ويحتال لدفع القوم عنه ، إنه يبدأ بتفطيع ما هم مقدمون عليه ، فهل هذه الكلمة البريئة ﴿رَبِّ آلَ اللَّهِ﴾ المتعلقة باعتقاد قلب واقتناع نفس ، تستحق القتل ، ويرد عليها بإزهاق روح ؟ إنها في هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة ، ثم يخطو بهم خطوة أخرى ، فالذي يقول هذه الكلمة البريئة : ﴿رَبِّ آلَ اللَّهِ﴾ ويقولها معه حجته وليس حجة واحدة بل حجج كثيرة من الله ، وقد جاءكم بها ، فإن يك كاذباً ولم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ، فمن العقل والرأى

التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه فإن يك كاذباً فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يصيبكم بعض الذى يعدكم فإن يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً ، فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له ، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه ولو كان مسرفاً كذاباً لخذله الله وأهلكه .

ثم يذكرهم هذا المؤمن بأن الله أنعم عليهم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق نبيه ﷺ ، واحذروا نقمة الله أن كذبتهم رسوله ، فلن تغنى هذه الجنود ، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أردنا بسوء ، وقال فرعون رادا على هذا المؤمن : ما أشير عليكم برأى إلا بما أرى من قتله ، وما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أدخر منه شيئاً وهذا طريق الصواب والصلاح .

وقال الذى آمن متابعاً دفاعه عن موسى : الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة ، كيف حل بهم بأس الله ، وما رده الله عنهم راد ، وما الله يريد أن يظلم عباده فيعذبهم بغير ذنب أو يزيد على قدر ما يستحقون من العذاب ، ﴿ وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار ، وإذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتجت ، فنظر الناس إلى ذلك ذهبوا هاربين ، ينادى بعضهم بعضاً أو إذا جرى بجهم ذهب الناس هرباً منها ، فتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر ؛ أو لأن الميزان عنده ملك ، إذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته : ألا قد سعد فلان ابن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف عمله نادى ألا قد شقى فلان ابن فلان وينادى كل قوم بأعمالهم ، ينادى أهل الجنة أهل الجنة ، وأهل النار أهل النار ، أو لمناداة أهل النار أهل الجنة ، ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار .

ويحذر المؤمن قومه هذا اليوم الذى يولون الفرار فيه ، ولا عاصم يومئذ ولا ت حين فرار ، ومن أضله الله فلا هادى له ، والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال .

ما ترشدنا إليه الآيات تروياً :

١ - نصر الله تعالى لرسوله والمؤمنين ليس في فترة زمنية محددة ، وإنما هو نصر ثابت لكن في الوقت الذى يريده الله .

٢ - ضرورة الإخلاص في النصيحة والرفق بمن تنصحه .

٣ - مسؤولية الإنسان عن نفسه ، وعن أهله ، وعن مجتمعه الذى يعيش فيه .

معانى الكلمات :

هلك : مات .

مرتاب : شك في الدين .

سلطان : برهان .

يطبع : يختم بالضلال .

صرحا : بناء مرتفعا .

الأسباب : طرق السموات والأرض وما
يؤدى إليها .

تباب : خسران وهلاك .

دار القرار : محل الاستقرار .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعرف مذمة الله تعالى للمجادلين بغير سلطان وحجة .
- ٢ - أن نعلم سوء عاقبة المتكبرين .
- ٣ - أن نتعلم أهمية التذكير بالحساب والجزاء وما يتم في الدار الآخرة من سعادة وشقاء .

المحتوى التربوى :

يذكر مؤمن آل فرعون قومه بموقفهم من يوسف ، ومن ذريته كان موسى - عليهما السلام - وكيف وقفوا موقف الشك من رسالته ، وما جاءهم به من الآيات ، فلا يكرروا الموقف من موسى ، وهو يصدق ما جاءهم به يوسف ، فكانوا في شك وارتباب ، ويكذب ما جزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولا ، وها هو ذا موسى يحىء على فترة من يوسف ويكذب هذا المقال ، وهذه هي المرة الوحيدة في القرآن التى يشار فيها إلى رسالة يوسف عليه السلام للقوم في مصر ، والرجل المؤمن يشتد هنا وهو يشير إلى هذا الارتباب والإسراف في التكذيب ، فينذرهم بإضلال الله الذى ينتظر كل مسرف مرتاب في عقيدته ، وقد جاءته معها البيّنات .

ثم يشتد في مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات الله بغير حجة ولا برهان ، وهم يفعلون هذا في أبشع صورة ، وينذر بالتكبر والتجبر ، وينذر بطمس الله لقلوب المتكبرين

المتجبرين ، فالذين يدفعون الحق بالباطل ، ويجادلون الحجة بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى ، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ، ويبغضهم أشد البغض ، والمؤمنون أيضا يبغضون من تكون هذه صفته ، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه ، فلا يعرف بعد ذلك معروفا ، ولا ينكر منكراً ، ومثل هذا الطبع يطبع به الله على كل قلب متكبر على الحق جبار على خلق الله ، وإنما وصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه منبعهما .

ويبدو أنه على أثر هذا الدفاع الحار عن موسى ﷺ ، وعلى أثر هذا الوعظ الشديد ، أفلح فرعون عن قتل موسى ، فخطب وزيره من أجل أن يبني له صرحا يطلع إلى إله موسى ﷺ ، وبذلك أشعر يصرف النظر ، وأراد أن يغطي ذلك بهذا الطلب دون أن يعترف أنه كان مخطئا في تفكيره في قتل موسى ﷺ ، ودون أن يعلن انصرافه عن هذا القتل ، وقال فرعون جهلا أو تمويحاً أو تغطية أو انصرافا عما كان فيه ، أو إنهاء لكلام مؤمن آل فرعون : ياها مان ابن لى قصرأ عاليا منيعا شاهقا لعل أصل إلى طرق السموات وأبوابها ، وما يؤدى إليها ؛ إذ كل ما أذاك إلى شىء فهو سبب ، فأطلع إلى إله موسى وأنظر إليه وإنى لأظن موسى كاذبا في قوله له إله غيرى ، أو في وجود إله غيرى ، ومثل ذلك التزيين الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى ﷺ ، وصد عن السبيل المستقيم ، وما كيد فرعون إلا في خسار وهلاك .

قال صاحب الأساس : « وهذه بشارة لأهل الإيمان أن يطمئنوا إلى العاقبة ، وأن يعرفوا أن أعداء الله ليسوا على شىء مهما علا سلطانهم وامتد بغيتهم هذا في الدنيا ، وما عند الله أشد ، وفي الحديث : « ما من إمام يموت - يوم يموت - وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » .

وأمام هذه المراوغة ، وهذا الاستهتار ، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة ، بعدما دعا القوم إلى اتباعه في الطريق إلى الله ، وهو طريق الرشاد ، وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة ، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية ، وحذرهم عذاب الآخرة ؛ وبين لهم ما فى عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان ، فقال المؤمن معيدا نصيحته لقومه : ﴿ يَنْقُورُ آبِيعُونَ أَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ، لا كما كذب فرعون تعريض عندما قال : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ شبيه بالتصريح ، أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغنى .

وبعد أن أجمل فى دعوته فسر ؛ فافتتح بدم الدنيا فزهدهم فيها ، وهى التى قد آثروها على الأخرى ، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى ﷺ ، وفى ذلك إشارة إلى أن بداية الرشاد وطريقه هو الزهد فى الدنيا ، ﴿ يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ ﴾ متاع زائل لا ثبات له ولا دوام ، فهى قليلة فانية ، عن قريب تذهب وتضمحل ، والمتاع هو ما فيه تمتع يسير ، فالإخلاص إلى الدنيا أصل الشر ، ومنبع الفتن .

وبعد أن حقر الدنيا ثنى بتعظيم الآخرة ، وبين أنها هى الوطن والمستقر ، فقال : إنها الدار التى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا ظعن عنها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم ، ومن ثم

عقب بذكر الأعمال سيئها وحسنها ، وعاقبة كل منها ليثبت عما يتلف ، وينشط لما يزلف ، فقال : إن الحساب سريع ، وأن من عمل صالحا من الأعمال الصالحة التي شرعها الله لعباده وتعبدهم بها ، والحال أنه مؤمن مصدق بالله وبوعده ووعيده يوم لقائه ، فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات يدخلون الجنة دار السلام يرزقون فيه رزقا واسعا لا يلحق صاحبه تبعة ولا تعب ولا نصب .

وفي قصة مؤمن آل فرعون وحواره مع قومه ما يمكن أن يهتدى به كل من يريد أن يقدم النصيحة للآخرين ، وكل من يدعو غيره إلى خير ، ومن ذلك :

أ - إقناعهم بوجهة نظره بالحجة الواضحة والبرهان القاطع .

ب - أن يكون لينا حكيما متبعا لأحسن الطرق في النصح والإرشاد .

ج - ألا يظهر التعالي والتعاضم على من ينصحه .

د - أن يبين لمن ينصحهم أنه واحد منهم ينفعه ما ينفعهم ، ويضره ما يضرهم .

هـ - أن يضرب لمن ينصحه الأمثلة التي توضح لهم ما يريده منهم ، وأن تكون قريبة من أفهامهم .

و - أن يذكرهم باليوم الآخر وما يكون فيه من ثواب للطائعين ، وعقاب للعاصين ، كما يذكرهم بفضل الله تعالى ورحمته وعدله .

ز - وأن يتدرج معهم في النصيحة آخذاً بأيديهم ، مستميلا قلوبهم .

ح - ثم يركز النصيحة مع التخويف والإنذار ، ويفوض أمره بعد ذلك إلى الله متوكلا عليه ، تاركا له تبارك وتعالى هداية من يشاء من عباده .

هذا الصبر الطويل والنفس الجهد ، والفكر السديد والعمل الرشيد ، والأمل الندي الذي يشف عنه التعبير القرآني الصادر عن المؤمن مع قوم سادرين في كفرهم وعنادهم ، متشبين بمألوفهم وما عليه درجوا ، وهو في موضع غير المحسود ، وقد كشف أمره ، وانزاح ستاره ، وعذابه قد اقترب وما نظر إلا إلى حق ربه ونصرة عبده ، فهو يؤدي النصيحة لقوم كافرين ويصبر عليهم ، ونحن أولى بنا أن نصبر على من هم إخواننا من بنى جلدتنا ، وملتزم التزمه المؤمن من علو أدب وسمو عرض وطلب .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

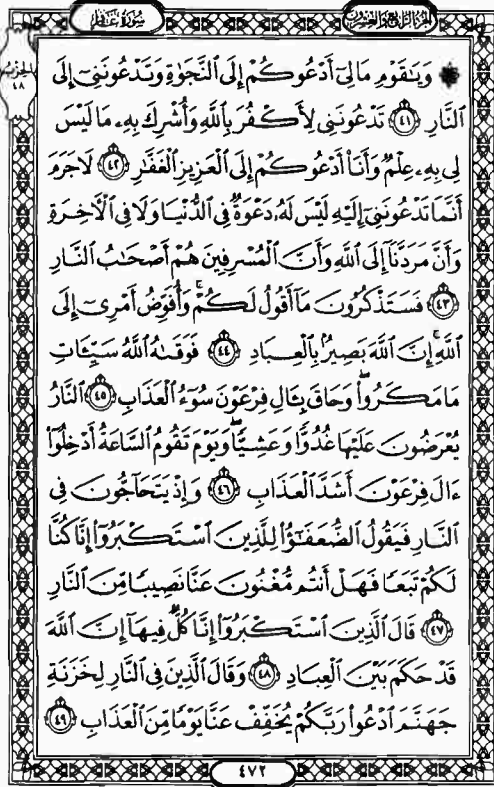
١ - المسلم لا ينزع قوس النصيحة من يده أبدا ، فهو مسؤول عن إرشاد الناس .

٢ - على أهل الإيمان أن يتيقنوا أن العاقبة لهم والجنة مصيرهم وفصل الله عظيم .

٣ - الإخلاص إلى الدنيا أصل الشر ومنبع الفتن ، فعليك النظر إلى النعيم الدائم .

معانى الكلمات :

- لا جرم : حق وثبت أو لا محالة أو حقاً .
 المسرفين : كل من تجاوز الحد في الضلال والطغيان .
 وحاق : نزل وأحاط .
 غدواً وعشيا : صباحاً ومساءً .
 يتحاجون : يلوم بعضهم بعضاً .
 الضعفاء : الأتباع المرؤوسون .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نتعرف على الفرق الكبير بين من يدعو إلى النجاة ومن يدعو إلى النار .
- ٢ - أن نؤمن بعذاب القبر ونعيمه .
- ٣ - أن نعلم حقيقة الكبر والاستكبار ومدى إعاقته عن الاستقامة .

المحتوى التربوي :

ما زال مؤمن آل فرعون يكرر دعاءهم إلى الله وصرح بإيمانه ، ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم ، وأنه إنما تصدى للتذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى ، كما يقوله الرجل المحب لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه ، فقال : أخبروني عنكم كيف هذه الحال ؛ أدعوكم إلى النجاة من النار ودخول الجنة بالإيمان بالله وإجابة رسله ، وتدعونني إلى النار بما تريدونه منى من الشرك ؟

وهم لم يدعوه إلى النار ، إنما دعوه إلى الشرك ، وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار ؟ إنها قريب من قريب ، فهو يبذل الدعوة بالدعوة في تعبيره ، وشتان بين دعوة ودعوة ، إن

دعوته لهم واضحة مستقيمة ، إنه يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره ، يدعوهم ليغفر لهم ، وهو القادر على أن يغفر ، الذي تفضل بالغفران ، فإلى أى شيء يدعوونه ؟ يدعوونه للكفر بالله عن طريق الإشراك ما لا علم له به من مدعيات وأوهام وألغاز .

ويقرر من غير شك ولا ريب أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شيء ، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة ، وأن المرد لله وحده ، وأن المسرفين المتجاوزين للحد في الادعاء سيكونون أهل النار ، وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة ؟ وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تلثم ، بعد أن كان يكتُم إيمانه ، فأعلن عنه هذا الإعلان ؟ لا يبقى إلا أن يفرض أمره إلى الله ، وقد قال كلمة وأراح ضميره ، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكري ، والأمر كله إلى الله ، وينتهي الجدل والحوار ، وقد سجل مؤمن آل فرعون كلمته الحق خالدة في ضمير الزمان .

ويحمل السياق حلقة القصة بعد هذا ، وما كان بين موسى وفرعون وبنى إسرائيل إلى موقف الغرق والنجاة ، ويقف ليسجل « لقطات » بعد هذا الموقف الأخير وبعد الحياة ، لقد طويت الدنيا ، وعرضت أول صفحة بعدها ، فإذا الرجل المؤمن الذي قال كلمة الحق ومضى ، قد وقى الله القوى الرحيم ذلك الرجل المؤمن الموفق ، عقوبات ما مكر فرعون وآله له ، من إرادة إهلاكه وإتلافه ؛ لأنه ناداهم بما يكرهون ، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام ، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى ، وهذا أمر لا يحتملونه ، وهم أصحاب الذين القدرة إذ ذاك ، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه ، فأرادوا به كيذا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم ، فلم يصبه من آثارها شيء في الدنيا ، ولا فيما بعدها أيضاً ، بينما نزل بآل فرعون سوء العذاب ، وهو الغرق في اليم ، ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ، ولهذا قال : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ ففي هذين الوقتين يعذبون في النار ، وفيما بين ذلك ، إما أن يعذبوا بجنس آخر ، أو بنفس عنهم ، ويجوز أن يكون المراد بذلك الدوام .

قال ابن كثير : « وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور ، روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إلى يوم القيامة » أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به . وعندما تقوم الساعة يقال : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ألما وأعظمه نكالا .

ولما كان آل فرعون أتباعاً ومتبوعين فإن الله عز وجل يقص علينا خصومة أهل النار مع بعضهم وذلك في يوم القيامة ، والسياق يلتقط لهم موقفاً وهم يتحاجون فيها ، فيقول الضعفاء وهم الأتباع لرؤسائهم وهم المستكبرون : إنا كنا لكم أتباعاً أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ، فهل أنتم دافعون عنا جزءاً من هذه النار ، فقال الذين استكبروا إنا كنا فيها لا يغنى أحد عن أحد ، ولا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا ، وما حملنا من العذاب والنكال ، فإن الله قد قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا .

يقول صاحب الظلال : « إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا ، لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً وإمعات ، ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنماً تساق ، لا رأى لهم ولا إرادة ولا اختيار ، لقد منحهم الله الكرامة ، كرامة الإنسانية ، وكرامة التبعة الفردية ، وكرامة الاختيار والحرية ، ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعاً ، تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملا والحاشية .

لم يقولوا لهم : لا ، بل لم يفكروا في أن يقولوها ، بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ وما كان تنازلهم عما وهبهم الله وأتباعهم الكبراء ليكون شفيعاً لهم عند الله ، فهم في النار ، ساقهم إليها قادتهم ، كما كانوا يسوقونهم في الحياة سوق الشيا ، ثم هاهم أولاء يسألون كبراءهم : ﴿ فَهَلْ أُنْتُمْ مُّغْنَوْنَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ ، كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد ، وأنهم يحمونهم من الفساد ، وأنهم يمنعونهم من الشر والضرر وكيد الأعداء .

فأما الذين استكبروا فيضيقون صدرأ بالذين استضعفوا ، ويجيئونهم في ضيق وبرم وملالة ، وفي إقرار بعد الاستكبار إنا كل ضعاف لا نجد ناصرأ ولا معيناً ، إنا كل في هذا الكرب والضيق سواء ، فما سؤالكم لكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء ؟ والله قد حكم بين العباد فلا مجال لمراجعة في الحكم ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل . « . وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء ألا ملجأ من الله إلا إليه ، اتجهوا لخرقة جهنم ، يستشفعونهم ليدعوا ربهم في رجاء يكشف عن شدة البلاء ولو ليوم واحد يلقطون فيه أنفاسهم ويستريحون .

ما ترشدنا إليه الآيات تريباً :

١ - الله تعالى ينجي عباده المؤمنين من كيد أعدائهم إذا أخلصوا دينهم لله ، وأدوا واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٢ - إثبات نعيم القبر وعذابه ، ولن يغنى أحد عن أحد شيئاً يوم القيامة .

٣ - لا يقبل الله تعالى - عذراً من الظالمين يوم القيامة وإنما يستحقون اللعنة وأسوأ العذاب .

معاني الكلمات :

ضلال : بطلان لا نفع فيه .

معذرتهم : اعتذارهم .

اللعنة : الطرد من رحمة الله .

سوء الدار : جهنم .

الكتاب : التوراة .

بالعشى والإبكار : في المساء والصباح .

سلطان : حجة وبرهان .

ما هم ببالغيه : لن يصلوا إلى ما يقتضيه كيدهم .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نتعرف على وعد الله تعالى لرسله وللمؤمنين .
- ٢ - أن نعلم منه الله سبحانه على موسى عليه السلام وعلى بنى إسرائيل .
- ٣ - أن نعرف الدافع إلى جدل المجادلين في آيات الله الواضحة .

المحتوى التربوي :

يذكر السياق أن خزنة جهنم لا يستجيون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة ، فهم يعرفون الأصول ويعرفون سنة الله ويعرفون أن الأوان قد فات ، وهم لهذا يزدون المعذنين عذابا بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب ، فقالت الخزنة : أولم تك تأتيكم رسلكم بالمعجزات والدلائل الواضحات ؟ فقال الكافرون : بلى : قالت الخزنة : فادعوا أنتم لأنفسكم ، فنحن لا ندعو لكم ، ولا نسمع منكم ، ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم براء ، ثم أخبروهم أنه سواء دَعَوْا أولم يَدْعُوا لا يستجاب لهم ولا يخفف عنهم ، ولهذا قالوا : وما دعاء الكافرين إلا في ضياع وذهاب لا يقبل ولا يستجاب .

قال صاحب الأساس : « ذكر الله عز وجل ثلاثة أنواع من العذاب يسلمه على الكافرين به ويرسله : عذاب الدنيا، وعذاب البرزخ في القبر ، وعذاب النار ، وبعد أن ذكر الله سبحانه أنواع

العذاب هذه بين أن ذلك كله إنما يفعله نصرة لرسله وللمؤمنين ، فقال : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ كما نصر موسى ومؤمن آل فرعون بإغراق فرعون ، ونصرهم في الآخرة يوم يقوم الأشهاد وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكافرين بالتكذيب ، وفي هذا اليوم لا ينفع الظالمين معذرتهم إذا أذن لهم في الاعتذار لا تقبل معذرتهم ، ولهم اللعنة والبعد من رحمة الله ، ولهم سوء دار الآخرة وهو أشد عذابا .

يقول صاحب الظلال : « إن وعد الله قاطع جازم : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ، ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبا مطرودا ، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب ، وفيهم من يلقي في الأخدود ، وفيهم من يستشهد ، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد ، فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ويفعل بها الأفاعيل ! والناس يقصرون معنى النصر على صورة معينة معهودة لهم ، قريبة الرؤية لأعينهم ، ولكن صور النصر شتى ، وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة ، إبراهيم عليه السلام وهو يلقي في النار فلا يرجع عن عقيدته ، ولا عن الدعوة إليها .. أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة ؟ ما من شك - وفي منطق العقيدة - أنه كان في قمة النصر وهو يلقي في النار ، كما انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار ، هذه صورة وتلك صورة ، وهما في الظاهر بعيد من بعيد ...

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده ، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة ، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمها ، فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد ، وربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال . ما النصر ؟ وما الهزيمة ؟ إننا في حاجة إلى تراجع ما استقر في تقديرنا من الصور ومن القيم ، قبل أن نسأله أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا .

إن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا ، ولا بد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها إن هنالك أشكالا من الشرك خفية ؛ لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده ، ويتوكل عليه وحده ، ويطمئن إلى قضاء الله فيه وقدره عليه ، ويحس أن الله وحده هو الذى يصرفه فلا خيرة له إلا ما اختار الله ، ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضا والقبول ، وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدي الله ، ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير ، فسيكل هذا كله لله ، ويلتزم ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير ، وذلك معنى من معانى النصر .. النصر على الذات والشهوات ، وهو النصر الداخلى الذى لا يتم نصر خارجى بدونه بحال من الأحوال . »

ويأتى التعبير عن نموذج من نماذج نصر الله في قصة موسى ؛ إيتاء الكتاب والهدى ، ووراثته الكتاب والهدى ليكون هناك تذكير للخير بالترغيب فيه ، وعن الشر بالترهيب عنه ، ليس ذلك لكل أحد ، وإنما هو لأولى الألباب .

ويأتى التوجيه لرسول الله ﷺ ومن كانوا معه من المؤمنين في مكة في موقف الشدة والمعاناة ، ولكل من يأتى بعدهم من أمته بالصبر ، الصبر على التكذيب ، والصبر على الأذى ، والصبر على نفخة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان في فترة من الزمان ، والصبر على طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا ومن هناك ، والصبر على النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها في النصر القريب ، وما يتعلق به من رغائب وآمال ، والصبر على أشياء كثيرة في الطريق قد تجيء من جانب الأصدقاء قبل أن تجيء من جانب الأعداء ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ مهما يطل الأمد ، ومهما تتعقد الأمور ، ومهما تتقلب الأسباب ، إنه وعد من يملك التحقيق ، وفي الطريق خذ زاد الطريق الاستغفار المصحوب بالتسبيح وهو في ذاته تربية للنفس وتطهير للقلب وهذه هي صورة النصر في القلب وفي هذا تهيج للأمة على الاستغفار والتسبيح بحمد الله في الليل والنهار والإدانة على عبادة الله .

ثم يقرر السياق أن الجدال في آيات الله أثر عن الكبر الذى يستهدف أصحابه الجاه والعظمة والرياسة وإذ تحدت الأسباب النفسية والقلبية للجدال في آيات الله ، وتبينت مظاهر ذلك وأهداف أصحابه ، فإن الموقف المكافئ لذلك هو الصبر والاستغفار والتسبيح بحمد الله والاستعاذة بالله ، وإذا كان الصبر مستحيل الوجود إلا إذا كان هناك إيمان باليوم الآخر ، وإذا كان الاستغفار والتسبيح والاستعاذة أثراً عن معرفة الله عز وجل ، فإن السياق يتجه للحديث عن اليوم الآخر ، ويتجه ليعرفنا على الله عز وجل .

قال ابن كثير : « يقول الله تعالى منبها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة ، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض ، وخلقها أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة ، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأخرى » ، ورؤية هذه المعانى تدل على بصيرة القلب ، وعدم رؤيتها يدل على العمى ، والإيمان بها ينبع عنه العمل الصالح ، وعدم الإيمان ينبع عنه العمل السيئ ، كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا ، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره ، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ، وما أقل ما يتذكر كثير من الناس .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - مما يعين المؤمن على تحمل مشقات الحياة أن يكثّر من الاستغفار والتسبيح بحمد الله ، فيكون له النصر في الدنيا والآخرة .

٢ - وجوب الصبر والتحمل في ذات الله .

٣ - الكبر يورد المهالك ويبعد عن طريق الصواب

معاني الكلمات :

لا ريب : لا شك .

والنهار مبصرا : النهار سبب في الإبصار بضوئه .

تؤفكون : تصرفون .

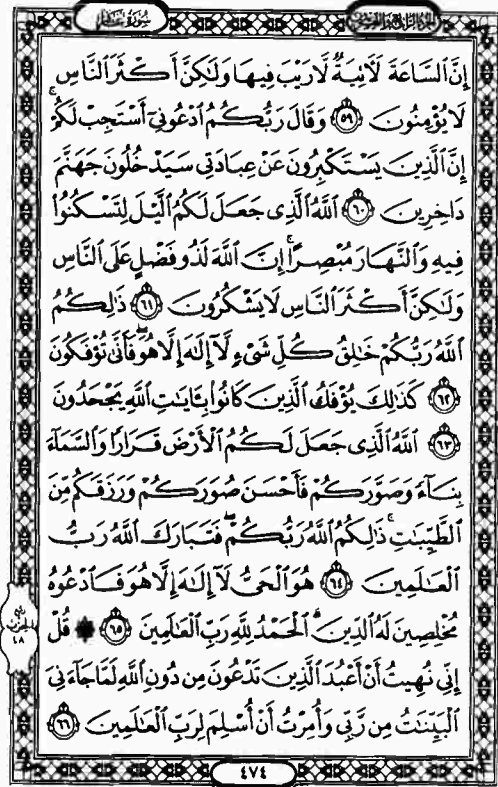
يحدون : ينكرون .

قرارا : مستقرا .

بناء : سقفا مرفوعا .

وصوركم : وخلقكم .

تبارك : تعالى وتمجد وكثر خيره .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعلم قرب الساعة وحتمها وفضل الدعاء .
- ٢ - أن نتعرف على بعض الآيات الكونية التي يغفل عنها الناس .
- ٣ - أن نعلم مظاهر قدرة الله في الخلق والإيجاد ، والإرزاق والإحياء والإماتة .

المحتوى التربوي :

قرر السياق أن الساعة التي كذب بها المكذبون ليستمروا على الباطل والشر فعلا واعتقاداً ، لأنه حتماً ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بها لوجود صارف قوى وهو عدم تذكرهم ، وانكبابهم على قضاء شهواتهم .

قال الفخر الرازي : « اعلم أنه تعالى لما بين أن القول بالقيامة حق وصدق ، وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلا بطاعة الله تعالى ، لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات ، ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع ، لا جرم أمر الله تعالى به » .

وهذا من فضله - تبارك وتعالى - وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه ، وتكفل لهم بالإجابة ، كما كان يقول سفيان الثوري : يا من أحب عباده إليه من سألته فأكثر سؤاله ، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله ، وليس أحد كذلك غيرك يارب .

يقول صاحب الظلال : « وللدعاء أدب لا بد أن يراعى إنه إخلاص القلب لله ، والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها ، أو تخصيص وقت أو ظرف ، فهذا الاقتراح ليس من أدب السؤال ، والاعتقاد بأن التوجه للدعاء توفيق من الله والاستجابة فضل آخر ، وقد كان عمر رضي الله عنه يقول : أنا لا أحمل هم الإجابة إنما أحمل هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء كان الإجابة معه ، وهى كلمة القلب العارف ، الذى يدرك أن الله حين يقدر الاستجابة يقدر معها الدعاء ، فهما حين يوفق الله متوافقان متطابقان .

فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم ، وهذه نهاية الكبر الذى تفتح به قلوب وصدور فى هذه الأرض الصغيرة ، وفى هذه الحياة الرخيصة ، وتنسى ضخامة خلق الله فضلاً على نسيانها عظمة الله ، ونسيانها للآخرة وهى آتية لا ريب فيها ، ونسيانها للموقف الدليل فى الآخرة بعد النفخة والاستكبار .

ولما ذكر الذين يستكبرون عن عبادة الله ، شرع يعرض بعض نعم الله على الناس ، تلك النعم التى توحى بعظمته تعالى ، والتى لا يشكرون الله عليها ، بل يستكبرون عن عبادته والتوجه إليه ، والليل والنهار ظاهرتان كونيتان والأرض والسماء خلقتان كونيان كذلك ، وهى تذكر مع تصوير الله للبشر وإحسان صورهم ، ومع رزق الله لهم من الطيبات ، وتعرض كلها فى معرض نعم الله وفضله على الناس ، وفى معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله ، فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعانى ، وعلى وجود الصلة بينها ، ووجوب تدبرها فى محيطها الواسع ، وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق .

ويذكر السياق أنه من أجلكم جعل الله الليل مظلماً ؛ لتسكنوا فيه من حركاتكم ، والتى لو استمرت لضررت فتأوون إلى فرشكم ، ويلقى الله عليكم النوم الذى يستريح به القلب والبدن ، وهو من ضروريات آدمى لا يعيش بدونه ، ويسكن أيضاً كل حبيب إلى حبيبه ، ويجمع الفكر ، وتقل الشواغل ، وجعل تعالى النهار منيراً بالشمس المستمرة فى الفلك ، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية ، هذا لذكره وقراءته ، وهذا لصلاته وهذا لطلب العلم ودراسته وهذا لبيعه وشرائه ، وهذا لبنائه أو حدادته أو نحوها من الصناعات وهذا لسفره براً وبحراً ، وهذا لفلاحته ، وهذا لتصليح حيواناته ، والله ذو فضل عظيم على الناس حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها ، وصرف عنهم النقم ، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون بسبب جهلهم وظلمهم .

ويشير السياق إلى أن الذى خلق الليل والنهار هو الله ربكم المنفرد بالإلهية ، والمنفرد بالربوبية ؛ لأن انفراد هذه النعم من ربوبيته ، وإيجابها للشكر من ألوهيته ، ويقرر السياق أنه سبحانه لا رب غير ولا إله سواه ، فهو الجامع لأوصاف الربوبية والإلهية والوحدانية ، فكيف تعبدون غيره

من الأصنام التي لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوتة ، وكل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ، ولم يطلب الحق .

أفك كما أفكوا ، وكما ضل هؤلاء بعبادة غير الله كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الجهل والهوى وجحدوا حجج الله وآياته .

وينتقل السياق من ظاهرتي الليل والنهار إلى تصميم الأرض لتكون قراراً ، والسماء لتكون بناءً ، والأرض قرار صالح لحياة الإنسان ، والسماء بناء ثابت النسب والأبعاد والحركات والدورات ، ومن ثم تضمن الاستقرار والثبات لحياة هذا الإنسان المحسوب حسابها في تصميم هذا الوجود المقدر في بنائه تقديراً ، ويربط بتكوين السماء والأرض تكوين الإنسان ورزقه من الطيبات ، وأنه خلقه فأحسن خلقته .

ولو رحنا نبحت دقة التكوين الإنساني وتناسق أجزائه ووظائفه - بوصفها داخلة في قوله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾ - لوقفنا أمام كل عضو صغير ، بل أمام كل خلية مفردة في هذا الكيان الدقيق العجيب ، وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط ليعيش فيه ويتأثر به ، ويؤثر فيه ، وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط وتكوين هذا الإنسان ، وتصوير الإنسان على هذه الصورة ذو علاقة بوسطة أى بالأرض والسماء ، ومن ثم يذكر القرآن صورته في نفس الآية التي يذكر فيها الأرض والسماء .

ويذكر أنه سبحانه خلق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرازق ، والذي دبر الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم لله ربكم ، تعاظم وكثر خيره وإحسانه ، المربى جميع العالمين بنعمه ، وهو الحى الذى له الحياة الكاملة التامة ، المستلزمة لما تستلزمة من صفاته الذاتية التى لا تتم حياته إلا بها كالسمع والبصر والقدرة ، والعلم والكلام وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله ، فلا معبود بحق إلا وجهه الكريم فاعبدوه مخلصين له الطاعة من الشرك والرياء مع التوحيد الخالص ، جامعين بين العبادة والشكر والتحميد .

وأمام هذه الآيات والهبات ، وما تلاها من تعقبات ، وفي أشد اللحظات امتلاء بحقيقة الوجدانية ، وحقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية ، يحىء التلقين لرسول الله ﷺ ليعلن للقوم أنه منهى عن عبادة ما يدعون من دون الله من الأوثان والأنداد، وأنه على يقين بما آتاه ربه من القرآن، وأنه مأمور بالإسلام لله رب العالمين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الدعاء هو العبادة فلنكثر من الدعاء لله رب العالمين .

٢ - من شروط الدعاء المستجاب أن يكون القلب متعلقاً بالله معرضاً عما سواه ، وألا يسأل ما فيه إثم .

٣ - وجوب العبادة لله وحده ولا ننظر إلى أى شىء سواه ، فحقه أن توجه إليه بالكلية .

معاني الكلمات :

خلقكم من تراب : أوجد أصلكم من تراب .

نطفة : المنى .

علقة : الدم الغليظ .

الأغلال : القيود تجمع الأيدي إلى الرقاب .

الحميم : الماء الذي بلغ نهاية الحرارة .

يسجرون : تحيط بهم النار وتملأ أجوافهم .

ضلوا عنا : غابوا عنا .

تمرحون : تتوسعون في الفرح والزهو .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نتعرف على أطوار خلق الإنسان ومراحل حياته .
- ٢ - أن نعلم حال المجادلين في آيات الله يوم القيامة .
- ٣ - أن نعرف جزاء المتكبرين الذين يمنعهم الكبر من الاعتراف بالحق .

المحتوى التربوي :

يستعرض السياق آية من آيات الله في أنفسهم بعدما استعرض آياته في الآفاق ، هي آية الحياة الإنسانية وأطوارها العجيبة ، وليتخذ من هذه الحياة مقدمة لتقرير حقيقة الحياة كلها بين يدي الله ، وهذه النشأة الإنسانية فيها ما يدركه علم الإنسان ؛ لأنه كان قبل وجود الإنسان ، وفيها ما يشاهده ويراقبه ، ولكن هذا إنما تم حديثا بعد نزول هذا القرآن بقرون ، فالتراب أصل الحياة كلها على وجه هذه الأرض ومنها الحياة الإنسانية ، ولا يعلم إلا الله كيف تمت هذه الخارقة ، وأما تكاثر الإنسان بعد ذلك عن طريق التزاوج فيتم عن طريق التقاء خلية التذكير وهي النطفة بالبويضة واتحادهما واستقرارهما في الرحم في صورة علقه . وفي نهاية المرحلة الجنينية يخرج الطفل بعد عدة تطورات كبرى في طبيعة الخلية الأولى ، تعد إذا نحن نظرنا إليها بتدبر أطول وأكبر من

الأطوار التي يمر بها الطفل من ولادته إلى أن ينتهي أجله ، والتي يقف السياق عند بعض مراحلها البارزة : مرحلة الطفولة ثم بلوغ الأشد حوالى الأربعين ، ثم الشيخوخة ، وهى المراحل التى تمثل أقصى القوة بين طرفين من الضعف ، ومنكم من يتوفى من قبل أن يبلغ هذه المراحل جميعا أو بعضها ، ولتبلغوا أجلا مسمى مقدراً معلوما لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ، ولعلكم تعقلون ما فى رحلة الجنين ورحلة الوليد وحسن الخلق والتقدير من العبرة .

وهو يعقب عليها بعرض حقيقة الإحياء والإماتة وحقيقة الخلق والإنشاء جميعا ، وتكثر الإشارة فى القرآن إلى آياتى الحياة والموت ؛ لأنها تلمسان قلب الإنسان بشدة وعمق ، ثم لأنها الظاهرتان البارزتان المكررتان فى كل ما يقع عليه حس الإنسان ، ومن الحياة والموت إلى حقيقة الإنشاء وأداة الإبداع ، وأن هى إلا الإرادة يتمثل اتجاهاها إلى الخلق ، خلق أى شئ فى كلمة ﴿كُنْ﴾ فإذا الوجود ينبثق على إثرها ﴿فَيَكُونُ﴾ فتبارك الله أحسن الخالقين .

وأمام نشأة الحياة البشرية ، وفى ظل مشهد الحياة والموت ، وحقيقة الإنشاء والإبداع .. يبدو الجدال فى آيات الله مستغربا مستنكرا ، ويبدو التكذيب بالرسول عجيبا ، ومن ثم يواجه بالتهديد المخيف فى صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة ، فيقول سبحانه : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ، ويمجادلون بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ، فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذى جاءهم من الله ، وبما أرسل الله به رسله ، الذين هم خير الخلق وأصدقهم ، وأعظمهم عقولا ، فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية ، ولهذا توعدهم الله بعذابها بوعيد أكيد وعذاب شديد من الرب جل جلاله .

ثم بين أن هذا العلم سيكون إذ الأغلال والسلاسل فى أعناقهم تسحبهم بها الزبانية على وجوههم تارة إلى الحميم ، وهو : الماء الحار ، وتارة إلى الجحيم ، وهو : النار فتكون محيطة بهم مملوءة بها أجوافهم ، ثم قيل لهم على وجه التقرير والتوبيخ والتحقير والتصغير ، والتهكم والاستهزاء بهم ، والقائل هم خزنة جهنم : أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله ، قالوا : ذهبوا عنا فلم ينفعونا ، أو غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم ، وتبين لنا أنهم لم يكونوا شيئا ، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئا ، وقد يكون المراد جحودهم لعبادة غير الله كذبا منهم ، كعادتهم الكذب فى الدنيا ، وكذلك يضل الكافرين مثل ضلال أهتهم عنهم فى الآخرة ، يضلهم الله عن الحق فى الدنيا ، بجداولهم فى آيات الله ، أو كما أضل هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلال على الدين الحق ، ذلكم العذاب الذى نزل بكم ، بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق وهو الشرك ، وعبادة الأوثان .

قال ابن كثير : « تقول لهم الملائكة : هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق ، ومرحكم وأشركم وبطركم .. فبئس المنزل والمقيل الذى فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله ، واتباع دلائله وحججه » .

فعن الكبر نشأت هذه المهانة وجزاء على الكبر كان هذا التحقير وأمام هذا المشهد - مشهد الذل والمهانة ، والعذاب الرعيب ، وعاقبة الجدل فى آيات الله ، والكبر النافخ فى الصدور - يتجه السياق إلى رسول الله ﷺ بوصيه بالصبر على ما يجده من كبر ومن جدال ، والثقة بوعد الله الحق على كل حال ، سواء أراه الله بعض الذى يعدهم فى حياته ، أو قبضته إليه وتولى الأمر عنه ، فالقضية كلها راجعة إلى الله ، وليس على الرسول إلا البلاغ ، وهم إليه راجعون .

يقول صاحب الظلال : « وهنا نقف أمام لفظة تستحق التدبر العميق ، إن هذا الرسول الذى يلاقى ما يلاقى من الأذى والتكذيب والكبر والكنود يقال له ما مفهومه : أذ واجبك وقف عنده ، فأما النتائج فليست من أمرك حتى شفا صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه ، إنه يعمل وكفى ، يؤدى واجبه ويمضى ، فالأمر ليس أمره ، والقضية ليست قضيته .

إن الأمر كله لله ، والله يفعل به ما يريد .

يا الله ، يا للمرتقى العالى ، ويا للأدب الكامل الذى يأخذ به أصحاب هذه الدعوة فى شخص رسوله الكريم ، وإنه لأمر شاق على النفس البشرية ، أمر يحتاج إلى الصبر على أشواق القلب البشرى العنيفة ، لعله من أجل هذا كان التوجيه إلى الصبر فى هذا الموضع من السورة ، فلم يكن هذا تكراراً للأمر الذى سبق فيها ، إنما كان توجيهاً إلى صبر من لون جديد ، ربما كان أشق من الصبر على الإيذاء والكبر والتكذيب ؟ !

إن احتجاز النفس البشرية عن الرغبة فى أن ترى كيف يأخذ الله أعداءه وأعداء دعوته ، بينما يقع عليها العداء والخصومة من أولئك الأعداء أمر شديد على النفس صعب ، ولكنه الأدب الإلهى العالى ، والإعداد الإلهى لأصفيائه المختارين ، وتخليص النفس المختارة من كل شئ لها فيه أرب ، حتى ولو كان هذا الأرب هو الانتصار من أعداء هذا الدين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - التأمل فى الأنفس يوجب الإيمان بالواحد الأحد سبحانه .

٢ - ذم الفرح بغير فضل الله ورحمته والمرح وهو أشد من الفرح ، وذم التكبر وأهله .

٣ - وجوب الصبر على دعوة الحق ، وعلى الإنسان أن يجد ويجتهد فى عمله وفى عبادة ربه ، تاركا النتيجة والثمرة لله مع الثقة فى فضله - تعالى - وعدله ورحمته .

معاني الكلمات :

آية : معجزة .

خسر هنالك المبطلون : هلك المعاندون الكافرون .

وآثاراً في الأرض : عمرانا لا تزال آثارها باقية .

بالبينات : بالمعجزات الظاهرات .

وحاق : ونزل وأحاط .

بأسنا : شدة العذاب في الدنيا .

سنة الله : حكم الله .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم منة الله - تعالى على الناس في الأنعام .

٢ - أن نعرف مشروعية السير في البلاد للعظة والاعتبار تقوية للإيمان .

٣ - أن نتعرف على أن سنن الله لا تتخلف وأن آيات القدرة شاهدة على ذلك .

المحتوى التربوي :

يستكمل السياق توجيه الرسول ﷺ والمؤمنين إلى الصبر حتى يأذن الله ، ويتحقق وعده ووعدته ، سواء تحقق هذا في حياته ﷺ أم استأخر بعد وفاته ، فالأمر ليس أمره إنما هو أمر هذه العقيدة والمؤمنين بها والمجادلين فيها المستكبرين عنها ، والحكم في هذا الأمر هو الله وهو الذي يقود حركتها ويوجه خطواتها كما يشاء ، ويستطرد السياق في عرض جوانب آخر من إن قصة أمر الرسالة قصة طويلة وقديمة ، ولم تبدأ برسالة الإسلام ورسوله ﷺ فقبله كانت رسل ، قص الله بعضهم عليه وبعضهم لم يقصصهم عليه ، وكلهم ووجهوا بالتكذيب والاستكبار وكلهم طولب بالآيات والحوارق ، ولكن ما من آية إلا بإذن الله في الوقت الذي يريده الله فهي دعوته ، وهو يصرفها كيف يشاء .

يقول صاحب الظلال : « فالنفس البشرية - لو كانت نفس رسول - تتمنى وترغب أن تستعلى الدعوة وأن يدعن لها المكابرون سريعاً ، فتتطلع إلى ظهور الآية الخارقة التي تقهر كل مكابرة ، ولكن الله يريد أن يلوذ عباده المختارون بالصبر المطلق ، ويروضوا أنفسهم عليه ، فيبين لهم أن ليس لهم من الأمر شيء ، وأن وظيفتهم تنتهى عند البلاغ ، وأن مجيء الآية هو الذى يتولاه حينها يريد لتطمئن قلوبهم وتهدأ وتستقر ، ويرضوا بكل ما يتم على أيديهم ويدعوا الأمر كله بعد ذلك لله .

ويريد كذلك أن يدرك الناس طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة ، ويعرفوا أن الرسل بشر منهم ، اختارهم الله ، وحدد لهم وظيفتهم ، وما هم بقادرين ولا محاولين أن يجاوزوا حدود هذه الوظيفة ، كذلك ليعلم الناس أن تأخير الآيات رحمة بهم ، فقد قضى في تقديره بأن يدمر على المكذبين بعد ظهور الآيات ، وإذن فهي مهلة وهى من الله رحمة .. ولم يعد هناك مجال لعمل ولا لتوبة ولا لرجعة بعد قضاء الله الأخير .

ثم يوجه السياق طلاب الخوارق إلى الآيات الحاضرة التى ينسون وجودها بطول الألفة ، وهى لو تدبروا بعض هذه الخوارق التى يطلبون ، وهى شاهدة كذلك بالألوهية ؛ لبطلان أى دعاء بأن أحداً غير الله خلقها ، وأى ادعاء كذلك بأنها خلقت بلا خالق مدبر مريد ، فالله عز وجل خلق لكم الأنعام من البقر والإبل والغنم والماعز ؛ لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها ، ولكم منافع فى ألبانها وأوبارها وجماها وغير ذلك ، ولتبلغوا عليها ما تحتاجون إليه من الأمور ، وعلى الأنعام وعلى الفلك تحملون تفضلاً من الله ونعمة .

قال ابن كثير : « فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ، ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها ويحرب عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة » .

والله - تعالى - يريكم حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم ، وأنتم لا تقدرون على إنكار شيء من آياته ، فكيف تقترحون الآيات وهى مبثوثة أمامكم ، وكيف لا تؤمنون والآيات مرئية مشاهدة ، ولماذا تجادلون وتعاندون وتكابرون والأمر أوضح من كل واضح ، أفلم يسير هؤلاء الكافرون المعاندون المجادلون فى الأرض ، فينظروا كيف كان نهاية الذين من قبلهم من الأمم ، كانوا أكثر منهم عدواً وأشد قوة فى أبدانهم ، وآثاراً خلفوها فى الأرض ، والظاهر أن الخطاب لقريش المخاطبين الأوائل .

يقول صاحب الظلال : « ومصارع الغابرين كثيرة فى تاريخ البشرية ، وبعضها ما تزال له آثار تحكى ، وبعضها حفظته الروايات على الألسنة ، أو حفظته الأوراق والكتب ، والقرآن كثيراً ما

يوجه القلوب إليها ، لما فيها من دلالة على حقائق ثابتة في خط سير البشرية ، ولما لها كذلك من أثر في النفس الإنسانية عميق عنيف ، والقرآن يخاطب الفطرة بما يعلمه منزل هذا القرآن من حقيقة الفطرة ، ومسارها ومداخلها ، وأبوابها التي تطرق فتفتح ، بعضها بعد نقرة خفيفة ، وبعضها بعد طرقات كثيرة إن كان قد ران عليها ركام .

وهنا يسألهم وينشطهم للسير في الأرض بعين مفتوحة ، وحس متوفز ، وقلب بصير لينظروا ويتدبروا ما كان في الأرض قبلهم ، وما يتعرضون هم لجريانه عليهم .

قال الفخر الرازي رحمه الله : « اعلم أنه تعالى راعى ترتيباً لطيفاً في آخر هذه السورة ، وذلك أنه ذكر فصلاً في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ، ثم أرفده بفصل في التهديد والوعيد ، وهذا الفصل الذي وقع ختم هذه السورة هو الفصل المشتغل على الوعيد ، والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله ، وحصل الكبر العظيم في صدورهم بهذا ، والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه ، فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا ، فين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة ؛ لأن الدنيا فانية ذاهبة - فلو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين ليست إلا الهلاك والبوار ، مع أنهم كانوا أكثر عدداً ومالاً وجاهاً من هؤلاء المتأخرين .

توافرت لهم الكثرة والقوة وال عمران ولم تعصمهم قوة ولا كثرة ولا عمارة مما كانوا يعتزون به ويغترون ، بل كان هذا هو أصل شقاوتهم وسبب هلاكهم ، والعلم - بغير إيمان - فتنة ، فتنة تعمى وتطفئ ، ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهري يوحى بالغرور ، فيتجاوز صاحبه بنفسه قدرها ومكانها ، وهؤلاء فرحوا بما عندهم من العلم ، واستهزؤوا بمن يذكرهم بما وراءه ، فلما عاينوا بأس الله ، سقط عنهم القناع وأدركوا مدى الغرور واعترفوا بما كانوا ينكرون وأقروا بوحداية الله كفروا بشركائهم من دونه ، ولكن الأوان كان قد فات ، وسنة الله قد جرت على ألا تقبل توبة بعد ظهور بأس الله ، فهي توبة الفزع لا توبة الإيثار ، وسنة الله ثابتة لا تضطرب ولا تتخلف ولا تحيد عن الطريق ، وعلى هذا المشهد العنيف ، مشهد بأس الله يأخذ المكذبين ، ومشهدهم يستغيثون ويفزعون ، ويعلمون كلمة الإذعان والتسليم تختم السورة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - لا يقبل الله تعالى - التوبة من الذين ينتظرون حتى ساعة الموت .

٢ - ما ذكر في القرآن من قصص الرسل قليل من كثير للظة والاعتبار والإنذار .

٣ - سنن الله تعالى - لا تتخلف ومظاهر قدرته تعالى كثيرة واضحة ، فليطمئن المؤمن إلى جنب